

مُراجعات كتب :
(٤)

الكاثوليك في الدولة العثمانية

مراجعة رضوان السيد

كان المسيحيون في الأقاليم التي سيطر عليها العثمانيون، في غالبيتهم من الأرثوذكس، وهذه الدراسة متعلقة بالكنيسة الكاثوليكية، لذلك قال المؤلف(*) في البداية إنها معنية بتاريخ الصراع بين الشرق والغرب منذ عصر الحروب الصليبية باعتبار أنّ أوروبا المقاتلة كانت كاثوليكية. إذ بعد أن فتح العثمانيون القسطنطينية سيطروا على مساحات شاسعة يقطنها مسيحيون أرثوذكس. وحدهم سَكَّان غلطة عبر القرن الذهبي، كانوا من التجار الجنوبيين الكاثوليك. وكان الكاثوليك في شجار مستمر مع الأرثوذكس قبل الفتح العثماني بزمان طويل حول قضايا شعائرية وفكرية وسياسية ومصالحية. وقد وصلت الكراهية بين الطرفين إلى حدّ شماتة الكاثوليك بما أصاب الروم الأرثوذكس من العثمانيين، واعتبار ذلك عقوبةً إلهيةً للهراطقة. وقد ظن مسيحيون كثيرون أنّ محمداً الفاتح سيستعبد الأرثوذكس لكنه في الواقع حوّل الكنيسة الأرثوذكسية إلى جزء من الهرمية الإدارية بالدولة. ورغم ظهور العثمانيين فإنّ الكنيستين ظلّتا على خصام. فرغم محاولات الوحدة، فإنّ الكنائس الغربية كانت تبقى دائماً خارجها، ثم إنّ أيّ محاولة وحدوية كانت تؤدي إلى انقسامات حول الموضوع داخل كلّ كنيسة.

كان البنادقة بكريت أول من عرف بسقوط القسطنطينية عن طريق اليونان. وقد بالغ البنادقة عندما زعموا أنّ الترك قتلوا كلّ من زاد عمره على السنوات الست. وعندما أتى رسل منهم إلى روما لإخبار البابا نيكولاس بالأمّ، نشروا تلك الأخبار المروّعة على الطريق، مما دفع البابا لمهاجمة محمد الفاتح بقسوة، والدعوة لحملة صليبية جديدة لتخليص المسيحية من شرور الكفر المتصاعد على يد المسلمين الترك. لكنّ رسله فشلوا في إثارة اهتمام الأمراء الإقطاعيين الذين كانوا منهمكين في النزاعات الداخلية. وتوفي نيكولاس عام ١٤٥٥ م فخلفه بيوس الثاني الذي بدأ تكتيكاً جديداً بالاتصال بالإمارات بشرقي الأناضول (مثل أوزون حسن) لإثارتهم على العثمانيين، وذلك دون أن يكفّ عن الدعوة لحملة صليبية مباشرة. وعندما لم يثمر كلا التكتيكين، اتجه البابا نحو السلام. ودعا محمد الفاتح إلى التمسّح ليصبح ملكاً عظيماً من ملوك الغرب وامبراطوريته المقدسة. وعندما لم يجبه السلطان، أصدر منشوره بخصوص الحرب الصليبية الجديدة في ٢٢ أكتوبر ١٤٦٣ ثم سرعان ما توفي. وكان البابا الراحل قد أنشأ أسطولاً للزحف نحو الشرق من جنوة، والبنادقة، والنابوليين، وكان المفروض أن يهاجموهم من البحر، وأوزون حسن من البرّ، لكنّ السلطان سحق آنذاك أوزون حسن ففشل المشروع كلّهُ. في ذلك الوقت كانت هناك تطورات تجري على المستوى الكنسي فتزيد من افتراق الكنيستين الشرقية والغربية. وزاد الطين بلّة ظهور مارتن لوثر، وانهماك الكنيسة الغربية في نزاع داخلي طوال أيام السلطان سليمان القانوني تقريباً. بيد أنّ المسيحيين في الدولة العثمانية لم تكن لديهم شكاوى باستثناء أهل غلطة الذين كانوا يشكون من سوء تصرف الأندلسيين اللاجئين تجاههم. ويشغل الفصلان الثاني والثالث من الكتاب بتوسع الدولة العثمانية تجاه بلاد اليونان، وشرق أوروبا والبلقان، والبلاد العربية بين عهدي محمد الفاتح وسليمان القانوني وسليم الأول. وينصبّ جهد الكاتب في الفصول

(٤ - ٧) على بيان سياسات الترك تجاه الكاثوليك في ضوء تحسن علاقتهم بفرنسا، وإنشاء المدرسة الإغريقية بروما. فرغم عدااء الكتلثة للترك فإنهم دخلوا في مفاوضات مع الفرنسيين تحولت مع الوقت إلى حلف ضد آل هابسبورغ. وصارت لهم سفارة باسطنبول، لذلك اعتبروا حماة للكتلثة، في كل الأقطار الخاضعة للدولة العثمانية.

أما تجار غلطة من الجنوبيين فلم يكن ليههم كثيراً من يكون الحاكم: إغريقياً كان أو تركيا. وقد سارعوا لتهنئة السلطان بفتح القسطنطينية، وقدموا له مفاتيح مدينتهم. وقد أعطاهم السلطان بالمقابل عهداً أو أماناً أو فرماناً يؤمنهم على حياتهم وتجارتههم ودينهم وكنائسهم وممتلكاتهم. ويشكو المؤلف من أن المسيحيين كانوا يدفعون الجزية، لكنه يعترف بأنها لم تكن أكثر من الزكاة التي كان يدفعها المسلمون.

ويحمل الكتاب المذكور معلومات كثيرة ترد لأول مرة في صعيد واحد. لكنه لا يعرف الإسلام جيداً، بل هو مختص بتاريخ الكنيسة، لذلك يخطئ في فهم مدلولات مفردات مثل الشريعة، ودار الإسلام، والذمي، وأهل الكتاب. فهو يزعم أن الشريعة الإسلامية لا تغطي حالات «الغريب في دار الإسلام»، ويعني هذا أنه لا يعرف أبواب السير في كتب الفقه، بل لا يعرف كتاب أحكام أهل الذمة لابن قيم الجوزية. كما أنه يخطئ في فهم معنى دار الحرب، ويخطئ أخيراً في فهم أشواق الناس للدولة. لكن الكتاب يبقى رغم ما قلت مفيداً، للوثائق الجديدة التي يعرضها من الجانب الأوروبي، وللأفق الذي يبدو فيه الأمر عنده.